الرثاء وآفاقه الجديدة في المشرق العربي

د. أحمد عبد المنعم العسيلي
المدرس بقسم الأدب والنقد

فن الرثاء من الموضوعات البارزة ، في الشعر العربي والآداب العالمية ، بل هو من أول فنون الأدب ، حيث وجد منذ وجد الانسان ، ولأن الرثاء يقترن بالموت وليس في العالم أمة لم تعرف الموت ، وبالتالي لم توجد أمة من الأمم لم تعرف الرثاء .

فالرثاء ، وجد عند كل الأمم والشعوب بادية ، وراقية ، متحضرة « ونحن نجد صورا مبثوثة منه في الأدب الفرعوني القديم ... وعلى هذه الشاكلة ، لا توجد أمة مهما أوغلت في البداوة أو صعدت في مراقي الحضارة الا وهي تبكي مرتاها بكاء يصور حزن الانسان على أخيه »(١) وهو أدل فنون الأدب على فطرة الانسان اذ هو صدى لما في داخل النفس ذاتها ، وهو التعبير عن أشد النزعات فيها وهو الحزن ، والألم ، على من رحلوا عن هذه الدنيا الى الدار الآخرة .

وهذا الفن من الطبيعي أن يكون موغلا في القدم ، لأنه منذ وجد الانسان وجد أمامه هذا المصير المحزن : مصير الموت ، والفناء ، والرحيل الذي لا بد أن يصير اليه كل حي وينجم عنه الحزن ، والألم ، الذي يتجسم في عبارات شعرية تعرف بالرثاء .

---

(١) فن الرثاء ص ٩ ـ ١١ للجنة من أدباء الأقطار .

فالرثاء هو البكـــاء والحزن والتفجـــع « وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام »(١) ولكل أمة مراثيها والأمة العربية ، من الأمم التي تحتفظ بتراث ضخم، من هذه المراثي وهو باب واســع من أبواب شــعرها لأن ، « فنون الشعر ، وأغراضه مظهر من مظاهر البيئة ، فى معناها الشامل ، وأثر واضح لمـا تعكسه من أهداف ، وغايات ومن ثم يستمد الشــعر فنونه واتجـاهه من صميم الواقــع الذى يعبر عنــه ويفصح عن مطــالبه وحاجاته »(٢) .

ولما كان الرثاء من نتاج العاطفة الشديدة ، والانفعال العميق ، فقد حفل به ديوان شــعرنا العربى ، وانطــلق فيه خيال الشــعراء مضــخما مهــولا وبرزت فيــه الحقائق التــاريخية متسربلة ، بلباس العاطفة الجياشة،فاشتدت فيه الأساليب الكلامية ، والألفاظ والحروف وتدفقت هدارة تنفس عن انفجــارات النفوس واصــطخابات القلوب لكونها ترافق ضــياع العزيز ، وفقد الحبيب ومن هنــا كان الرثاء من الموضوعات البارزة ، من بين أغراض الشعر العالى وبالذات شعرنا العربى اذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم الى مصيرهم الذى لا بد أن يصــير اليه كل انسان ويصــبح أثرا بعد عين ، وكأن لم يكن شيئا مذكورا . وهذا ما حدا بالشعراء لندب أنفســهم وبكاء أرواحهم بالدموع الغزار أو بكاء الأهل والأصــدقاء ، ممن يحبونهم ويؤثرونهم ، وجعلهم يرسلون الدمع مدرارا فتسيل كلماتهم به أشعارا .

---

(٢) العمدة جـ ٢ ص ١٤٧ لابن رشيق تحقيق محمد محيى الدين دار الجيل الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٢ .

(٣) دراسات فى تاريخ الأدب فى أزهى عصوره ص ٤٥ د. خفاجى ود. عبد الرحمن عثمان .

فالشاعر العربى بكى نفسه ، وبكى أقاربه ، وأصحابه ، بكلمات ، وعبارات بث فيهـا لوعة قلبـه ، وترنح بها فى عبـارات مؤثرة كترنح الذبيح . هذا هو رثاء الأشخاص أما ما نريد الحديث عنه ، وهو رثاء المدن فى العصر العباسى الأول فى المشرق العربى ، فقد توخيت أن أعرض هذا اللون الجديد . الذى عرف طريقه الى الشعر العربى لأول مرة ، نتيجة لظروف العصر ، وأحداثه ، وما كان أدب العرب ، ولا شـعرهم فى زمن من أزمانهم بمعزل عن قضايا تاريخهم المجيدة ، وان كل قصيدة من قصائدهم مرتبطة بحادث يمت الى التاريخ ، ويمسـه من قريب ، أو بعيد وبالذات فى عصور مجدها الذى راح الشاعر يصف فيه بأسـها وبأس أهلها وبلاءهم أمام سطوة التاريخ ، ومنازع الأمم ، ومن هنا وجد اطار آخر تحرك فيه الرثاء بعيدا عن الشـخوص الآدميين ! وهو « رثاء المدن » . وهذا الاطار جـديد تحرك فيه هـذا الفن فى العصر العباسى ، الأول ، لأسباب ، ودواع بعضها يتعلق بالنقله الحضارية فى العصر العباسى اذ أصبحت المدينة تمثـل كيانا له معنى ، ووجـود فى نفوس أهلها ، وأن أهلها قد صاروا تربطهم بها روابط كثيرة مادية ، ومعنوية ، مما جعلهم يشعرون ازاء مدنهم بالشعور الانسانى النبيل ، هذا الى جانب ظهور الفتن والثورات التى حدثت فى ذلك العصر ولاسيما هذه الفتنة التى كانت بين « الأمـين » و « المـأمون » والتى انتهت بدمار « بغداد » والواقع أن الشعر فى هذا العصر لم يعش بمعزل عن تلك الأحداث التى عاشتها « بغداد » فقد حركت تلك الفتنة أحاسيس الشعراء ، وأهاجت مشاعرهم فصوروا هذه المأساة الأليمة فى قصائد تبكى الوطن ، وقد احتفظت لنا مصادر الأدب بكثير من هذه القصـائد التى سجلت وقائع الأحداث الأليمة التى عاشـتها مدن العراق أيام الفتنة وذلك فى المرحلة التى نشب فيه الصراع بين «الأمين» و«المأمون» فقد حاصرت جيوش المأمون « بغداد » وأحرقها قائده أثنـاء حصاره « للأمين » وصوب عليها مجانيقه فتحولت نارا أتت على كل شىء فيهـا

وكأن قصورها التى طالما أشاد بها الشعراء لم تكن شيئا مذكورا وأثرت هذه الحادثة المفجعة فى قلوب كثير من الشعراء ، وقبل أن نمضى فى ذكر هذه القصائد التى توضح هذا اللون من الرثاء ، وآفاقه الجديدة فى المشرق العربى ، نلقى بعض الأضواء على أحداث هذا العصر كى نقف على الخطوط الأساسية لسياسته ونتعرف على الدوافع والملابسات التى دفعت الشعراء الى هذا اللون الجديد الذى عرف طريقه الى الشعر العربى لأول مرة .

« ملامح من أحداث العصر فى عهد المأمون »

لقد شهد عصر « المأمون » كثيرا من الأحداث السياسية التى لعبت دورا هاما فى الأدب ، والشعر بصفة خاصة فقد اهتم الشعراء فى هذا العصر بتسجيل الحوادث الهامة فى أشعارهم ، وكان من المظاهر الكبرى التى نجدها فى أشعارهم صلته بالتاريخ يدونونه ، ويصورون فيه ما يدور على مسرح الحياة السياسية وما ظهر فيها من فتن ، وقلاقل بصدق ، وأمانة والى جانب هذا وجدناهم أيضا يصورون مشاعرهم ، ويسجلون أحاسيسهم ازاء هذه الحوادث والفتن والنكبات وكأنهم أحسوا أنهم يصنعون تاريخا فأرادوا تخليده ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان هذه الأشعار كانت فخرا لهم ووفاء وحبا لوطنهم وبلدهم العظيم ، فقد كانت أشعارهم أنات سمعها التاريخ يوم دمار « بغداد » وفتنتها واحراق « البصرة » ودمارها وما شاكل ذلك من الأحداث الكبرى فى المشرق العربى .

كل ذلك قد مثله الشعر تمثيلا دقيقا ولم يقف فيه الشعر عند الجانب الحسى فقط بل تجاوزه الى تدوين المشاعر والأحاسيس ولا شك أن « على صفحة الشعر المتألقة تتحدد قسمات الحياة ، وترتسم صور المجتمع وفى مرآته المجلوة تتعاقب الخلجات النفسية التى هى حقيقتها أصداء تلك الحياة وتمثيل لواقع ذلك المجتمع فالشعر الصادق هو ما

عبر عن مجتمعه ، وأفصح عن مدى انفعال الشـــاعر ، وتأثره بكل ما يجرى حوله »(٤) .

والصياغة الشعرية دائما تسترفد البيئة ، وتعبر عنها ، كما تسجل خطرات الحياة ، وواقعها وتجاربها ، وأثرهـــا فى نفس الشاعر وبهذا يصبح الشعر بحق مرآة لنفس قائله ، وتصبح نفسه مرآة لشـــعوره فالشعر هو : لغة النفس فحين تصفو النفس ، وتروق ، وتسلس ينتج عنها حصاد سلس رائق وعندما تتكدر وتنقبض ، وتكفهر ينتج عنهـــا حصاد كدر ، مكفهـــر باكى حزين مثـــل هذا اللون الذى نحن بصـــدد الحديث عنه وعلى هذا الأساس كان الشعر فى هذه الحقبة صورة للحياة بكل ما حدث فيها فالانســـان ابن البيئة يتـــأثر بما يحيط به ، وبالذات الأديب ، لأن الأدب « وتر حساس يتأثر بالحياة من حوله ، ويستجيب لما حوله من أحداث ومؤثرات .

فالشعر يصـــور الحياة بكل جوانبها ويعبر عن آمال امة وآلامهـــا وقد يتفوق الشـــعر فى هذا المجـــال عن التاريـــخ وقد يكون »(٥) أدق تصويرا للحياة لأنه يتناول ما يهمله التـــاريخ »(٦) ممـــزوجا بالمشاعر والأحاسيس النفسية من خلال انفعـــال الشاعر بما يدور حـــوله من أحداث فيصورها وينقلها الينا ومن هـــذه الأحداث الفتنـــة التى كانت « ببغداد » فى عصر « المأمون » اذ كثرت الأحـــداث وتفجرت الثورات فالأوضاع السياسية التى مرت بها هذه المدينة منذ تولى الأمين العرش

---

(٤) دراسات فى تاريخ الأدب العربى فى أزهى عصوره ص٣٧ .

(٥) الشعر فى عصر المأمون ص ١٤ د. على طلب – مطبعة الأمانة الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

(٦) الحياة العربية من خلال الشعر الجاهلى ص ٣ د. أحمد الحوفى – الهيئة المصرية العامة القاهرة ط سنة ١٩٧٢ .

وصار خليفة للمسلمين تميزت بالحدة ، والعنف ، وعاشت « بغداد » فى صراعات وحروب وكل ذلك كان له عميق الأثر فى نفسية الشعراء وأقرب مثال لهذا هو ما ذكره الشعراء فى رثاء هذه المدينة عندما بدأت الأحداث بها اذ راحوا يصورون الأوضاع السياسية أصدق تصوير وينقلون مشاعرهم تجاه بلدهم العظيم « بغداد » حيث بدأ الشعراء يحسون بالقلق والخوف من المجهول الذى يخبئه الغيب فعكفوا على رثائها بأصدق المشاعر وأبلغ العبارات ، وبداية الأحداث كانت عندما ولى الرشيد ابنه « محمد الأمين » العهد من بعده وترك ابنه « عبد الله المأمون »(٧) فمنذ هذه اللحظة انقسم العباسيون فبعضهم أيد هذا ، والبعض الآخر عارض ، وعندما أحس الرشيد بخطر هذه البيعة بدأ يفكر فى كيفية الخروج من هذا المأزق اذ أن « المأمون كان أكبر من الأمين بستة أشهر »(٨) . فأخذ يفكر فى كيفية تحويلها الى المأمون ، وبعد التفكير ، والمشورة بايع « للمأمون » بعد « الأمين » واعتقد بهذا أنه خرج مما وقع فيه اذ انه ولى العهد لابنيه ، « الأمين » ثم « المأمون » ولكن كانت هذه هى نقطة البداية ، فى الفتنة ، والخلاف ، الذى نشأ فى هذا العصر وكان من الطبيعى ألا تستقيم الأحوال،وتسير الأمور ، فى مسارها الطبيعى ، ولذا كان من نتائجها ، حرق بغداد ، وتخريبها من جراء هذه البيعة ، وينقل لنا بعض المؤرخين قصة اختيار الرشيد لولى عهده فيقول : « فاتفق وأنا بالخاوة معه أن دخل عليه خادمه العبد ، فتفرسه الرشيد ، وقال له ما وراءك يا مسرور ؟ فقال : ما تحب يا أمير المؤمنين ... فأومأ اليه بالدنو فألقى فى أذنه كلاما ثم تنحى فقال لى الرشيد : هذا خادمنا الأمين .. سرنا فى أمر مما أخذه من

---

(٧) راجع الطبرى جـ ٨ ص ٤٤١ دار المعارف تحقيق محمد أبو الفضل سنة ١٩٧٧م .

(٨) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٩٦ .

تقديم « الأمين » على « المأمون » بالولاية لأننا نرضى سيرته ونأمن ضعفه ونعرف فيه حزم المنصور،ونسك «المهدى » وعزة نفس الهادى» مع أن بنى هاشم يميلون الى الأمين وأنشد :

أخاف النواء الأمر بعد استوائه وأن ينقض الحبل الذى كان أبرما

ثم يقول : فلما رأيت بلوغ القلق فى نفسه من هذا الأمر تقدمت اليه فى ما تقدم ... من مبايعة المولد بعد الآخر »(٩) .

وبعد أن توفى « الرشيد » فى جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة(١٠) .

تولى ابنه « الأمين » وكان صغير السن ، كما كانت تنقصه الدربة السياسية والخبرة فى شئون الادارة(١١) ، وقد انعكس كل هذا على حياته السياسية ، ولقد بويع أبو عبد الله محمد الأمين فى اليوم الذى مات فيه « الرشيد » وهو يوم السبت فى جمادى الآخر سنة ثلاث وتسعين ومائة »(١٢) وبدأت حياته بالاضطراب وعدم الاستقرار فى حياته التى انتهت بقتله وضياع سلطانه « يوم الأحد لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة ، ودفنت جثته ببغداد ، وحمل رأسه الى خراسان ، وكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وأياما صفا له الأمر من جملتها سنتين ، وشهرا ، وكانت الفتنة بينه وبين أخيه سنتين »(١٣) .

(٩) حضارة الاسلام فى دار العلوم ص ٩٤ . جميلة نخلة المدور ـ دار المعارف العمومية طبعة سنة ١٩٣٥م .

(١٠) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٤١ ، العقد الفريد جـ ٣ ص ٤٤

(١١) نظرات حول العصر العباسى الأول ص ١٢٠ د. عبد المقصود نصار . دار الطباعة المحمدية القاهرة سنة ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م .

(١٢) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٩٥ دار الفكر تحقيق محمد محيى الدين ، العقد الفريد جـ ٣ ص ٤٥ .

(١٣) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٩٦ دار الفكر تحقيق محمد محيى الدين ، العقد الفريد جـ ٣ ص ٤٥ .

وقد اتسم عصر الأمين بأحداث رهيبة ، واضطرابات جسيمة ، وكان سبب هذا الصراع بين الأخوين يرجع الى وقوع الأمين تحت سلطان حاشية السوء الذين قاموا بدور خطير فى اثارة الفتنة بين الأخوين ومرجع ذلك أن الخلاف الذى حدث بينهما اصطبغ باللون العنصرى اذ أن التنافس فى الأصل كان بين العرب ، والفرس — وليس بين الأمين والمأمون — فالأمين أمه هاشمية وهى « زبيدة » بنت أبى جعفر المنصور والمأمون أمه فارسية وهى « مراجل »(١٤) .

ومن هنا بدأ النزاع بين الأخوين فى الظاهر ! ولكن الحقيقة هو نزاع بين الفرس أنصار «المأمون» وبين العرب أنصار « الأمين » وقاد هذا النزاع « الفضل بن سهل » وزير « المأمون » وهو فارسى ، « والفضل بن الربيع » وزير « الأمين » وهو عربى(١٥) . فالفضل ابن الربيع كان يخشى على نفسه اذا ما تولى المأمون الخلافة وقد أخذت حاشية الأمين تغريه بخلع أخيه المأمون وجعل البيعة لابنه « موسى » ومازالوا « بالأمين » حتى مال الى رأيهم واستجاب لهم وفى ذلك يقول ابن الأثير : « ولما شرع « الأمين » فى « خلع المأمون » استدعاه الى بغداد ليقر على نفسه بالخلع ... واعتذر « المأمون » عن الحضور وكثرت المكاتبات بينهما حتى كاد المأمون أن يوافق على نفسه الا أن الفضل بن سهل وزير المأمون شجعه على الامتناع »(١٦) ، وهذا ما يؤكد أن الخلاف كان مرجعه الى التنافس بين العنصر العربى والعنصر الفارسى ، فالفضل بن سهل كان يتمنى أن تكون « مرو » حاضرة الخلافة وعاصمتها بدلا من بغداد وبهذا تعود لخراسان عظمتها ومجدها

---

(١٤) راجع مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٩٦ .

(١٥) راجع نظرات حول العصر العباسى الأول ص ١٢٤ د. عبد المقصود .

(١٦) انظر الكامل جـ ٥ ص ١٤٠ لابن الأثير .

التى كانت تفخر بها على العرب قبل الفتح الاسلامى(١٧) • ومما كان له الاثر الاكبر فى ظهور النزاع وكيف بدأ الصراع أن المأمون كان قد اشتهر اثناء حياته فى خراسان بالتقوى والصلاح وحسن السيرة وعندما ظهرت بوادر الخلاف بين الأمين والمأمون أخذ الفضل بن سهل فى استمالة الناس الى المأمون فاستجابوا له وقبضوا على أعوان الأمين فى خراسان ومنذ هذه اللحظة أخذ الموقف لونا جديدا من الصراع والتنافس ، فبعد أن كان الصراع بالكلام فى المكاتبات ، بدأ السيف يأخذ طريقه فى هذا النزاع ، ويفصل بين الأخوين ، ونهض « الفضل ابن سهل » وزير « المأمون » واستمال له الناس وضبط الثغور والاستعداد لمواجهة الأحداث »(١٨) وبدأ كل من « الأمين » ، و « المأمون » فى الاستعداد الحربى ، وجهز « المأمون » جيشا كبيرا وجعل عليه « طاهر بن الحسين » لحراسة الحدود الغربية لخراسان وحمايتها ، أما « الأمين » فقد استعد بجيش مسلح وجعل عليه « على بن عيسى بن ماهان » وقد ولاه الأمين كور الجبل كلها : « نهاوند » و همذان ، وقم ، وأصفهان والتقى الفريقان عند مدينة « الرى » واقتتلوا قتالا مريرا الى أن أسفرت المعركة عن نصر عظيم لقوات المأمون بقيادة طاهر بن الحسين الذى مزق جيش الخلافة شر ممزق بعد أن قتل قائد جيش الأمين « ابن ماهان » وسقط صريعا فى ميدان المعركة وقد انضم الكثير من جيش « الأمين » الى جيش أخيه « المأمون » مما ساعد على تقوية جيش « المأمون » ووصلت هذه الأخبار المزعجة الى الفضل بن الربيع فاهتز ألما لما حدث ، ثم فكر

---

(١٧) راجع نظرات حول العصر العباسى الأول ص ١٢٦ د• عبد المقصود •

(١٨) راجع العصر العباسى الأول ص ٣٨ د• شوقى ضيف ـ دار المعارف سنة ١٩٧٨م •

الأمين وسارع بارسال عدة جيوش لمقاتلة طاهر بن الحسين وجعل على رأسهم عبد الرحمن بن جبلة الأنبارى(١٩) ، والتقى الفريقان بهمذان واشتبكا فى معركة حامية انتهت بفوز جيش المأمون والاستيلاء على همذان وقزوين وغيرهما من المدن المجاورة وخضعت كل بلاد الجبل وتم الاستيلاء عليها وكان نصرا ثانيا لطاهر على قوات الخليفة الأمين ولما رجعت فلول الجيش المنهزم الى بغداد اضطربت فيها الأمور وكثرت المخاوف وأصبح الأمين فى صورة مهزوزة يغشاها الاضطراب وتسيطر عليها الهزيمة .

وأراد المأمون أن يضع حدا لهذا الصراع الدموى بين جيوش المسلمين فجمع جيشا كبيرا وقسمه الى قسمين قسم مع « هرثمة بن أعين » يقصد بغداد من ناحية الشرق ، وقسم مع طاهر بن الحسين يقصدها من ناحية الأهواز والبصرة واتجه الجيشان نحو الغاية المطلوبة(٢٠) .

واجتمعت جيوش طاهر وهرثمة حول « بغداد » وحاصرتها وقاست المدينةالعظيمة كثيرا من الخراب والدمار وسفك الدماء والهدم والتحريق واشعال النيران فيها وتعطلت العبادة فى مساجدها ويصور المسعودى ما حدث لبغداد وما نزل بأهلها فيقول : « خربت الديار وعفت الآثار وغلت الأسعار ... وقاتل الأخ أخاه والابن أباه وانتهبت الأموال وهدمت المنازل وأحرقت الديار »(٢١) وكانت نهاية الأمين بعد أن طال الحصار عليه واستشار أصحابه ومن بقى من قواده فأشار بعضهم بطلب الأمان لنفسه من هرثمة بن أعين ويسلم له ويبايع أخاه

---

(١٩) راجع نظرات فى العصر العباسى الأول ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢٠) راجع نظرات حول العصر العباسى الأول ص١٣٨د.عبدالمقصود

(٢١) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٠٨ تحقيق الشيخ محمد محيى الدين

المأمون وكتب الى هرثمة فأجابه الى ما طلب وعندما خرج الأمين وركب سفينة سارت به فى نهر دجلة الى الضفة الأخرى أدركه أصحاب طاهر فأسروه وقتلوه وقطعوا رأسه وحملوه الى خراسان وكان سنه فى ذلك الوقت ثلاث وثلاثين سنة وستة أشهر وثلاث عشرة يوما(٢٢) • وذلك فى سنة ثمان وتسعين ومائة يوم الأحد لخمس بقين من المحرم(٢٣) وقد كتب طاهر الى المأمون يخبره بما فعل فحزن لقتل أخيه حزنا شديدا وبهذا انتهت هذه المأساة التى أحدثت صدعا فى بناء الخلافة وأراقت دماء غزيرة(٢٤) • مما دفع الشعراء للتأثر بكل هذه الأحداث التى دارت فى بغداد « ولقد بكاها الشعراء فى شعرهم بشعر يفيض حزنا وحسرة وألما يصدر عن عاطفة موجعة وقلب مفعم بالآلام والأحزان »(٢٥) •

ولعل هذا العرض السريع الموجز يكون قد رسم صورة واضحة لعصر الأمين الذى قدمه الرشيد على أخيه المأمون اذ لم تكن أمه هاشمية فكان يخشى وقوع الفتن وزوال الخلافة عنهما الى الواقفين لها من أهل البيت أو الى من كان أقرب الهاشميين الى استخلاف أبى العباس فان عم عم الرشيد الى ثلاثة أعمام حاضرون • فعبد الصمد بن على عم العباس بن محمد والعباس عم سليمان بن المنصور وسليمان ابن عم هارون وهؤلاء هم المرتقبون للخلافة والواقفون لها بالمرصاد(٢٦) •

ولكن أبى الله الا أن تحدث الفتنة وتبدأ الحرب بين الأمين ،

---

(٢٢) مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٩٦ •
(٢٣) العقد الفريد جـ ٣ ص ٤٥ •
(٢٤) راجع نظرات حول العصر العباسى الأول ص١٣٣ د• عبدالمقصود
(٢٥) الشعر فى عصر المأمون ص ١٩ د• على طلب •
(٢٦) راجع حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٩٦ •

والمأمون وينجم عنهـا ما نجم من الدمار والخـراب الذى لحق بمدن العراق وبالذات بغـداد والذى أريد أن استنتجه من ذلك كله أن هذا الصراع الذى حدث بين الأخوين لم يكن مرجعه الحصول على الخلافة ـ فيما أرى ـ وانما هو صراع وحرب بين العرب والفرس هذه الحرب التى انتهت بقتل الأمين • وتولى « عبد الله المأمون » بن هارون بعـد قتل أخيه يوم الخميس لخمس خلـون من صفر سنة ثمان وتسـعين ومائة ••• وكانت مدته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يـوما وتـوفى سـنة ثمـانى عشرة ومـائتين لثمان خلـون من رجب ودفن بطريـوس(٢٧) •

ونكتفى مضطرين بهذا العرض حرصا على الايجاز ، ونعيـد ما قلناه وهو أن الشعر فى العصر العباسى الأول كان صورة لحياة العصر « فما حياة الشعراء فى العصر العباسى الا صورة من حياة العصر قد تكون هذه الصورة مكبرة نوعا ما وهذا طبيعى لأن الشاعر أو قل الفنان أول من ينقاد لعواطفه وليس الشاعر شاعرا ولا الفنان فنانا ـ فى الغالب الأعم ـ الا بفيض عواطفه وغلبة مشاعره »(٢٨) •

والآن مع بعض الصور التى رسـمها الشعراء فى تصوير أكبـر حدث هز كيان الدولة الاسلامية والدولة العباسية بصـفة خاصة وهو حرق بغداد حاضرة الخلافة ومقرها ورميها بالنفط والنيران والمجانيق حتى أصبحت رمادا أو خرابا • ومنذ هذه اللحظة بدأ الشـعراء يبكون هذه المدينة بأصدق الأشعار وأخلدها لأنها تصور واقعا ملموسا وتعبـر عن تجربة صادقة عاشها الشاعر بنفسه وعبر عنها بشعره الذى وجد فيه

---

(٢٧) العقد الفريد جـ ٣ ص ٤٥ الطبعة الأولى سنة ١٣٢١هـ •

(٢٨) المقارنة بين الشعر الأموى والعباسى فى العصر الأول ص١٦٩ د• عزيز فهمى تحقيق محمد قنديل دار المعارف •

عزاء عما أصاب هذه المدينة ولم يهدف من ورائه جاها ولا سلطانا ولا مالا ولا رضاء من أحد وانما كان الذى يعنيه هو العزاء لأنه يجد فيه صدى لعاطفته واحساسه وروحه ٠

ولقد كانت قصيدة الشاعر أبى يعقوب اسحاق الخريمى فى رثاء بغداد أطول وأهم قصيدة رثى بها شاعر عربى مدينة من المدن فقد أورد الطبرى منها مائة وخمسة وثلاثين بيتا وقد بدأ بقوله(٢٩) :

قالوا : ولم يلعب الزمان ببغـ
ـداد وتعثر بها عواثرها
اذ هى مثل العروس باطنها
مشوق لفتى وظاهرها
جنة خلد ودار مغبطة
قل من النائبات واترها
درت خلوف الدنيا لساكنها
وقل معسورها وعاسرها
وانفجرت بالنعيم وانتجعت
فيها بلذاتها حواضرها
فالقوم منها فى روضة أنف
أشرق غب القطار زاهرها

لقد بدأ الشاعر قصيدته بهذا المطلع الذى بدأ يصف فيه مدينة بغداد فى روعتها وفتنتها وجمالها قبل أن تنزل بها الكوارث وتحدق بها الفتن وتحل بها النكبات وقوله « قالوا » فى مستهلها يدل على أن الشاعر

---

(٢٩) تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ٤٤٨ تحقيق الأستاذ محمدأبوالفضل دار المعارف سنة ١٩٧٧ ٠

أراد أن يستخدم أسلوب الرواة فيحكى لنا قصة هذه المدينة فى حالى نعيمها وبؤسها • وهكذا مضى الشاعر يصف بغداد فقد كانت كالعروس جميلة فى مظهرها عظيمة فى مخبرها جذابة بحسنها وأهلها يروحون ويغدون ويمرحون ويفرحون تملأ قلوبهم الغبطة والسعادة ويعيشون فيها حياة تملؤها البهجة ، ولم يعكر صفوها الكدر بل هى جنة الله فى أرضه سعدوا بها وبجمالها وسعدت بملوكها وعظمتها ، وقد صورهم الشاعر ووصفهم بأنهم :

أهل العلا والندى وأندية الـ ـفخر اذا عدت مفاخرها

ويمضى الشاعر فى ذكر صفات هذه المدينة المزدانة بملوكها وخلفائها التى جمعت كل اسباب الحياة الناعمة المشرقة • ولكن سرعان ما يعود الشاعر ويذكر لنا ما صارت اليه بغداد حيث يتبع فى قصيدته اسلوب الموازنة بين صورة بغداد المشرقة قبل نكبتها ثم ينظر الى الصورة الجديدة التى آلت اليها هذه المدينة بعد الأحداث • والشاعر يهدف من وراء ذلك الى استخدام الصور التى تثير النفس الانسانية وتفجر المشاعر المكبوتة من جراء هذه المأساة التى حلت ببغداد وعلى هذا النحو يمضى الشاعر فى جمعه بين الأضداد والمتناقضات فيقول(٣٠) :

ياهل رأيت الأملاك ما صنعت
اذ لم يراها بالنصح زاجرها
أورد أملاكنا نفوسهم
هوة غى أعيت مصادرها

---

(٣٠) الطبرى جـ ٨ ص ٤٤٩ •

ما ضرهـــا لو وفـت بموثقهـــا
واستحكمت فى التقى بصـــائرها
ياهل رأيت الجنـــان زاهـــرة
يـروق عـــين البصـير زاهرها
وهل رأيت القصـــور شـــارعة
تكن مثـــل الدمى معـــاصرها
وهل رأيت القرى التى غرس المـــ
أملاك مخضـــرة دســـاكرها
محفـوفة بالكـروم والنخـل والر
يحـــان ما يســـتقل طـائرها
فانهـا أصبحت خـــلايا من المـــ
انســـان قـد أدميـت محاجرها
قفـــرا خلاء تعوى الكلاب بهـــا
ينكر منهـا الرسـوم زائرهـا
وأصـبح البـــؤس ما يفـارقها
الفـــا لهـا والسرور هاجرهـــا

والشاعر فى هذه الأبيات يصور ما كان ببغداد من طبيعة جميلة تكثر فيها الحدائق والبساتين اليانعة الجميلة التى تسر الناظرين ببهجتهـا وتريح النفس بهوائهـا وطبيعتهـا • هكذا كانت بغـداد ســاحرة بمناظرها تكثر فيها القصور العـالية الشاهقة البنيان مزدانة بالنسـاء الفاتنات المنعمات • وينتقل الشاعر الى القرى المجاورة لبغداد ويصف ما كان فيهـا من نخيل وأشجار ورياحين تفنن الخلفـاء فى غرسـها وتعهدها حتى صارت صورة مشرقة يأوى اليهـا الانسان ويجد فيهـا ومتعته ثم بعد ذلك يعود الشاعر ويذكر لنا ما حدث فيقول لقد اختفى كل مظهر من مظاهر الجمال حتى الانسان تركها وفر هاربا منها بسبب

تلك النكبة التى حدثت لها وصيرتها خرابا وخلاء موحشا وسكنتها الكلاب الضالة فلا يسمع فيها الا عواؤها ودرست معالمها فلا تكاد العين تتعرف على شيء منها لكثرة ما ضاع من معالم هذه المدينة ولقد حل بها البؤس وأصبح لا يفارقها بل صار هو الأليف لها فى وضعها الجديد بعد أن هجرها السرور والفرح وبالجملة فان الشاعر فى البيت الأخير يريد أن يقول لقد تحول العز والنعيم الى بؤس وشقاء بكل ما تعنيه هذه الكلمات فالشاعر يتحسر على بغداد وأحياء بغداد فى لون من الموازنة جديد فيقول(٣١) :

أين الظباء والأبكار فى روضة الـ

ملك تهادى بها غرائزها
أين غضاراتها ولذاتها
وأين محبورها وحابرها
فأين رقاصها وزامرها
يجبن حيث انتهت حناجرها
تكاد أسماعهم تسك اذا
عارض عيدانها مزاهرها

ويمضى فى رسم الصورة المشرقة لكى ينهيها بصورة الخراب والدمار فيقول :

أمست كجوف الحمار خالية يسعرها بالجحيم ساعرها

وكما هو مقرر فى التصور الاسلامى أن الله تعالى انما يهلك القرى بظلمها راح الشاعر يتمثل تلك النكبة التى حلت ببغداد بوصفه عقابا لها

---

(٣١) الطبرى جـ ٨ ص ٤٥٠ .

ولأهلها بسبب بعدها عن الدين وميلها الى الانحراف والتفريط كل ذلك وصفه الشاعر فى نبرة آسية ولوعة صادقة وصور خلالها تلك الفتنة تصويرا دقيقا مسهبا حتى لتبدو أمام العين عند قراءتها عندما يقول(٣٢) ٠

يا بؤس بغداد دار مملكة
دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثم أعقبها
لما أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق وبال
حرب التى أصبحت تساورها
كم قد رأينا من المعاصى ببغداد
فهل ذو الجلال غافرها
حلت ببغداد وهى آمنة
داهية لم تكن تحاذرها
وطالعها السوء من مطالعها
وأدركت أهلها جرائرها
رق بها الدين واستخف بذى الـ
فضل وعز النساك فاجرها
وخطم العبد أنف سيده
بالرغم واستعبدت حرائرها

هكذا يذكر الشاعر شقاء بغداد وكيف دارت بها وبأهلها الدوائر بعد أن أمهلها الله حقبة من الزمن أنزل بها أقسى ألوان العقاب وهو

---

(٣٢) الطبرى جـ ٨ ص ٤٥٠ ، الشعر والشعراء جـ ٢ ص ٨٥٥ لابن قتيبة دار المعارف ٠

الخسف والقذف والحريق والخراب بسبب الحروب وقد كانت فى يوم من الأيام آمنة مطمئنة ولم تكن تتصور فى يوم من الأيام أن يأتيها الحذر من مأمنها وانما سوء الحظ لازمها بسبب ضعف دين أهلها واستخفافهم بذوى الفضل وقلة العباد وكثرة الفجار وشتان ما بين حال بغداد بالأمس وحالها اليوم بعد الفتنة التى تركتها أشلاء وحطاما ويصور الشاعر تلك النهاية الحزينة ويمضى فى هذه النغمة فيلخص ما حل بالمدينة فى صورة مجملة فيقول(٣٣) :

من ير بغداد والجنود بها
قد ربقت حولها عساكرها
يحرقها ذا وذاك يهدمها
ويشتفى بالنهاب شاطرها

فالفريقان المتحاربان اجتمعا على تدميرها بالحرق والهدم وقد وجد الأعداء الفرصة سانحة للنهب والسلب • وبعد أن استوفى الشاعر مقارنته بين المدينة فى حال عزها ومجدها وبينها فى حال بؤسها أخذ يرسم صورة حية لحالة المدينة التى صارت مستباحة وسيطر عليها الهلع والفزع الذى أصاب الناس رجالا كانوا أم نساء صغارا كانوا أم كبارا فقال(٣٤) :

بل هل رأيت السيوف مصلتة
أشهرها فى الأسواق شاهرها

---

(٣٣) تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ٤٥١ دار المعارف تحقيق محمد أبو الفضل سنة ١٩٧٧م .

(٣٤) تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ٤٥٢ دار المعارف تحقيق محمد أبو الفضل سنة ١٩٧٧م

والخيـــل تســتن فى ارقتهـــا
بالتـــرك مســنونة خنـــاجرها
والنفـــط والنـــار فى طرائقهـــا
وهابيـــا للدخـــان عامرهـــا
والنهب تعـــدو به الرجـــال وقد
أبـــدت خلاخلهـــا حرائرهـــا
معصوصيات وســط الأرقة قـــد
أبرزهـــا للعيـــون ساترهـــا
كل رقـــود الضحى مخبـــأة
لم تبـــد فى أهلهـــا محاجرهـــا
بيضـــة خـــدر مكنـــونة برزت
للنـــاس منشـــورة غدائرهـــا
تعثـــر فى ثوبهـــا وتعجلهـــا
كبـــة خيل ريعت حوافرهـــا
تســـأل أين الطـــريق ؟ والهـــة
والنـــار من خلفها تبادرهـــا
لم تجتـــل الشمس حسن بهجتها
حتى اجتلتهـــا حرب تباشرهـــا
يا هـــل رأيت الثكـــلى مولولـــة
فى الطـــرق تســـعى والجهد باهرها
فى اثـــر نعش عليـــه واحدهـــا
فى صـــدره طعنـــة يساورها
تنظـــر فى وجهـــه وتهتف بالثـــ
ـــكل وجـــارى الدموع حادرهـــا
غرغر بالنفس ثم أسلمهـــا
مطلـــولة لا يخـــاف ســـائرها

والشاعر يصور الخيل وهى تعدو فى الأسواق وعليها الأعداء شاهرى السيوف وحاملى الخناجر والنفط والنيران فى الشوارع والحارات وقد انعقد الدخان التى تجمع وصار سحابا أسود فى وسط هذا الظلام مما ساعد اللصوص على الهرب بما انتهبوه . أما النساء الحرائر فقد خرجن مذ عورات من منازلهن حاسرات الرؤس وقد نشرن شعورهن بعد ان كن محجبات فى خدورهن لا يراهن أحد ولا تنظر اليهن عين ولكن هول هذه الحرب جعلهن يخرجن بهذه الصورة يتعثرن فى ثيابهن من شدة السرعة مزاحمة الخيل فى الشوارع تسأل ولا مجيب والنار تلاحقها من خلفها فى الطريق تكاد تمتد اليها والى جانب هذا نجد صورة أخرى يرسمها الشاعر لامرأة ثكلى حزينة تسير فى الطريق وتبكى وتولول وقد وصل بها الارهاق مبلغه وكيف لا وهى تسير خلف نعش حمل عليه ولدها مصابا بطعنة فى صدره من الأعداء وهناك صورة ثالثة لامرأة تنظر الى وجه ابنها وهو يعانى سكرات الموت وتصرخ نادبة حظها والدموع تنحدر من عينها وهى ترى ابنها يلتقط أنفاسه الأخيرة اذ بلغت روحه الحلقوم انها حشرجة الموت التى على أثرها يفارق الحياة ويموت قتيلا ولا قصاص ولا دية هكذا كان أهل بغداد وما حل بهم ويمضى الشاعر فى رسم الصور المثيرة التى تبعث الأسى والحسرة فيقول(٣٥) :

وقد رأيت الفتيان فى عرصة الـ
معـرك معفورة مناخرهـا
كل فتـى مانع حقيقتـه
تشقى به فى الوغى مساعرهـا
باتت عليه الكلاب تنهشه
مخضوبة من دم أظافرها

---

(٣٥) تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ٤٥٣ .

أمـــا رأيـت الخيـــول جائلـة
بالقـوم منكـوبة دوائرهـــا
تعثر بالأوجـــه الحســان من الـ
قتـلى وغلـت دما شـــاعرها
يطـــأن أكبـــاد فتية نجـــد
يفلـق هـــاماتهم حوافرهـــا
أمـا رأيت النســاء تحت المجـا
نيق تعـادى شـعثا ضـــفائرها
عقـائل القـوم والعجائز والـ
عنس لم تختبـــر معـــاصرها
يحملن قـوتا من الطحين على الـ
أكتـــاف معصـــوبة معاجرهـا
تسـأل عن أهلهـا وقـــد سلبت
وابتـذ عن رأســـها غفـائرها
يا ليت شـــعرى والدهر ذو دول
يرجى وأخرى تخشى بوادرهـــا
هل ترجعن أرضـــنا كمـا غنيت
وقـد تنـــاهت بنا مصـــايرها
لا طمعا قلتهـــا ولا بطـــرا
لكـل نفس هـــوى يؤامرهـا
ســـيرها الله بالنصـــيحة والـ
خشـية فاسـتدمجت مرائرهـا
جاءتك تحكى لك الأمـــور كمـا
ينشر بـــز التجـــار ناشرهـــا

وبعد فالقصيدة مثال واضح لشعر الرثاء الجيد الذى وفر له الشاعر كل عناصر النص الكامل من الفكرة والأسلوب والتجربة الشعورية والخيال • فالفكرة نابعة من واقع ملموس وحقيقة ثابتة وهى فكرة الدمار والخراب الذى حدث لبغداد وأهلها والذى كان له أثره البالغ على المدينة فأوحى للشاعر بهذه الفكرة التى تدور حول مأساة شاعر باغتته الأحداث فى وطنه الحبيب الذى عاش فيه ونعم بخيراته ودرج على ترابه وتغذى بطعامه وتنفس من هوائه ولهذا كان رثاء الشاعر لمدينته رثاء صادقا معبرا عن تجربة عاشها وتعايش معها فانفعل بها واستجاب لها وكشف عنها بأسلوب وكلمات تلائم تلك التجربة لأن « حسن اختيار الكلمات الموحية بطاقتها وجرسها ومعناها يعد أول خطوة من البناء الفنى وأن تأثير الكلمات يتفاوت قوة وضعفا تبعا لنوعها لأن هذه النوعية تلعب دورا مهما فى الايحاء برؤية الشاعر »(٣٦) • وكيف لا والشاعر يردد الصورة التى لحقت مدينته ابان نكبتها والتى توضح « أن بغداد لقيت بسبب ذلك الصراع أشنع وأفدح خسارة لقيتها مدينة فى حالة حرب مع عدو حقيقى »(٣٧) •

ويصور لنا المسعودى حالة المجتمع المضطرب فى بغداد فيقول : « وخربت الديار وعفت الآثار وغلت الأسعار » ويذكر لنا من الشعراء الذين بكوا بغداد بكاء مزق القلوب تأثرا بهذه النكبة المريرة ومن أحسن ما قيل قول الأعشى(٣٨) :

تقطعت الأرحام بين العشائر
وأسلمهم أهل التقى والبصائر

---

(٣٦) النقد التطبيقى والموازنات ص ٢٦ د• محمد الصادق عفيفى
(٣٧) فى الشعر العباسى ص ٣٧٣ د• عز الدين اسماعيل •
(٣٨) مروج الذهب ج ٣ ص ٤٠٨ للمسعودى •

فذاك انتقـــام الله من خلقـــه بهم
لمـــا اجترموه من ركوب الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنب تـــوبة
ولا نحن أصلحنا فســـاد السرائر
ولم نســـتمع من واعـظ ومذكر
فينجع فينـــا وعظ ناه وآمـــر
فابكى على الاســـلام لما تقطعت
رجـــاه ورجـــى كل كافـــر
فأصـــبح بعض الناس يقتل بعضه
فمن بين مقهـــور ذليـــل وقاهـــر
فنبكى لقتلى من صـــديق ومن أخ
كريم ومن جـــار شـــقيق مجاور
ووالـــدة تبكى بحزن على ابنهـــا
فيبكى لهـــا من رحمـــة كل طائر
وذات حليـــل أصـــبحت وهى أيم
وتبكى عليـــه بالدمـــوع البوادر
تقـــول له قـــد كنت عزا وناصـــرا
فغيـــب عنى اليـــوم عزى وناصرى

والشاعر فى هذه الأبيات يريد ن ينبه ويذكر أن ما حـــدث لهذه المدينة هو انتقام من الله لأهلهـــا لما ارتكبوه من معاصى وذنوب تجلب سخط الله من جراء الكبائر التى كانت عيانا جهارا وقد تخلى أولو الأمر عن القيام بواجبهم نحو الرعية من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكـــر وشغل كل انسان بنفسه وتقطعت عراهم وأصـــبح الكافر يجد أمنيته فى الحاق الضرر بهذه الأمة الاسلامية بل وصار البعض يعتدى على البعض بالقتل والسب حتى الأخ مع أخيه لا مراعاة لحرمة ولا خوف من حساب فالشاعر يحزن كل الحزن على الدولة الاسلامية الممثلة فى بغـداد التى

أصابها الوبال والنكال بسبب القلق والفتن فلا رحمة لأم تفقد ولدها ولا لزوجة تفقد زوجها كل هذا صوره الشاعر فى عبارات حمل الأسى والحزن لهذه الأم الثكلى والزوجة التى صارت أرملة بلا عائل ولا حامى ويستمر الشاعر فى رسم هذه المدينة المذعورة التى أصبح القتل والتشريد والخراب والتدمير هو الطابع المسيطر عليها فيقول(٣٩) :

وابك لاحراق وهدم منازل
وقتل وانهاب اللهى والذخار
وابراز ربات الخدور حواسرا
خرجن بلا خمر ولا بمآزر
تراها حيارى ليس تعرف مذهبا
نوافر أمثال الظباء النوافر

وأمام كل هذا لم يجد الشاعر بدا من البكاء فهو يبكى لاحراق المدينة وما حدث فيها من قتل للأنفس يبكى الشاعر وحق له البكاء لما رآه من خروج النساء الحرائر حاسرات الرؤس عاريات الوجوه بلا خمر ولا بمآزر يسترن عوراتهن ومن هنا يمكن أن نتخيل مدى الهول والفزع الذى جعل الشاعر مدينته برثاء صادق عن عاطفة جياشة متألمة من خروج ربات المنازل من بيوتهن فى الطرقات لا يهتدين الى طريق ولا يتعرفن على مكان يلجأن اليه فهن نوافر مثل الظباء الشادرة كل ذلك حدث لبغداد وكأنها لم تكن كما ذكر الشاعر فى قوله(٤٠) :

كأن لم تكن بغداد أحسن منظرا
وملهى رأته عين لاه وناظر

---

(٣٩) مروج الذهب جـ ٣ ص ٤٠٩ .
(٤٠) مروج الذهب جـ ٣ ص ٤١٠ .

بلى هكـــذا كانت فأذهب حسـنها
وبدد منهـا الشـــمل حكم المقادر
وحـــل بهم ما حـل بالناس قبلهم
فأضـحوا أحـاديث لباد وحـــاضر
أبغـداد يا دار الملوك ومحتمى
صروف المنـــايا مسـتقر المنـابر
ويا جنـــة الدنيا ويا مطلـب الغنى
ومستنبط الأموال عنـد المتـاجر
أبينى لنـــا : أين الذين عهـــدتهم
يلحـون فى روض من العيش زاهـر
وأين ملـــوك فى المراكب تغتـــدى
تشـــبه حسـنا بالنجوم الزواهـر
وأين القضـــاة الحـــاكمون برأيهم
لورد أمـور مشـــكلات الأوامـــر
أو القائلـــون : الناطقون بحكمـــه
ورصف كـلام من خطيب وشـــاعر
فمـا للملوك الغـــر من آل هاشـم
وأشـــياعهم فيهـا اكتفوا بالمفاخر
يروحـون فى ســـلطانهم وكأنهم
بروحـون فى سلطان بعض العشـائر
تخـــاذل عمـا نالهـم كبـراؤهم
فنالتهموا بالكـــره أيدى الأصـاغر
فأقسـم لو أن الملـوك تناصروا
لذلت لها خـــوفا رقاب الجبابر(٤١)

---

(٤١) مروج الذهب ج ٣ ص ٤١١ .

فالشاعر فى هذه الأبيات يذكر ماضى بغداد السعيد وما كان فيها من مناظر جميلة تمتع الناظرين بجلال حسنها وبديع منظرها ثم يعود الى أسلوب الموازنة فيقول هكذا كانت فى الماضى أما اليوم فقد ذهب حسنها وبدد مجالها وفرق جمعها وشتت شملها وهذا قدرها •

فقد أصبحت أثرا بعد عين وصارت حياتها قصصا وأحاديث تروى لأهل الحضر والبدو ولقد كانت بغداد بالأمس دارا للملوك والملك وقلعة يحتمى فيها الجميع اذا نزلت بهم صروف الدهر فهى مستقر للخلافة ومركزها وهذا ما جعل الشاعر يمضى فى تحسره على دمار المدينة التى كانت جنة الله فى أرضه ومطلب الغنى وملجأ الخائف وملاذ المحتاجين والضعفاء يلجأون اليها اذا نزلت بهم النوازل وحلت بهم الضرائر • ثم بعد كل هذا يشخصها ويطلب منها الجواب والتوضيح أين الذين عهدتهم يعيشون فى رغد من العيش وسط الرياض الزاهرة والحياة اللاهية وأين الملوك ومواكبهم التى تشبه النجوم وأين القضاة الحاكمون برأيهم السديد الفاصل فى مشكلات امور وأين الشعراء وأين الخطباء وأين الملوك من بنى هاشم وأتباعهم الذين لجأوا الى تقديم الأعذار والاكتفاء بها أين الملوك الذين دان لهم الجميع وصغر أمامهم كل كبير وانحنى لهم كل جبار عنيد كل هذا ذهب وضاع وقد صوره الشاعر بكلماته وعبر عنه بأسلوبه ولونه بشعوره واحساسه فى عبارات موحية بما فى داخل نفسه تجاه هذا الأمر الجلل الذى نزل ببغداد •

وفى نكبة بغداد هذه قال بعض فتيانها(٤٢) :

بكيت دما على بغداد لما
فقدت غضارة العيش الأنيق

---

(٤٢) تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ٤٥٧ ، مروج الذهب للسعودى جـ ٣ ص ٤١٤ •

تبـد لنا همـــوما من ســرور
ومن ســعة تبدلنا بضـــيق
أصـابتها من الحســـاد عـين
فأفنـت أهلهـــا بالمنجنـيق
فقـوم أحرقوا بالنار قصـــرا
ونائحـــة تنوح على طـــريق
وصـائحة تنادى واصـياحا
وباكيـــة لفقـــدان الشفيق
وحـــوراء المدامـع ذات دل
مضـخمة المجاسد بالخلـوق
تفـر من الحـريق الى انتهـاب
ووالدهـا يفـر الى الحـريق
وســالبة الغـزالة مقلتيهـا
مضـاحكها كلألأة البـــروق
حيـــارى كالهدايا مفكـرات
عليهـن القـلائد فى الحلوق
ينـادين الشفيق ولا شـــفيق
وقد فقد الشـــفيق من الشفيق
وقوم أخرجـوا من ظل دنيا
متـــاعهم يبـاع بكل ســوق
ومغتـرب قـــريب الدار ملقى
بلا رأس بقـــارعة الطـريق
توسط من قتـلاهم جميعـــا
فمـا يدرون من أى الفـــريق
فلا ولـــد يقيم عـلى أبيـــه
وقد درب الصـديق بلا صديق

ومهمـا أنس من شيء تـولى
فـانى ذاكر دار الـرفيق

وهكذا كانت بغداد وهذا ما صارت اليه مما جعل الشعراء يبكونها دما بدلا من الدمع لهول ما حل بها وبأهلها فالشاعر هنا رسم شريطا بالغ الدقة والروعة فى الاعراب عما آلت اليه المدينة والقصيدة مليئة بالحركات واللقطات المعبرة عن أحوال الناس وما تنطوى عليه أحاسيسهم ومشاعرهم التى انعكست على سلوكهم من جراء ذلك الجحيم الذى حل بهم وبأهلهم فى بلادهم • فبعد غضارة العيش وألوان النعيم فى سرعة البرق تبدد وتبدل السرور بالهموم وتحول النعيم ورغد العيش الى ضيق من جراء العين الحاسدة لهذه المدينة التى بلغت قمة مجدها وروعة جمالها فى عهد الرشيد والتى تحدث بعض الباحثين عن جمالها فى عهد الرشيد فقال :

« ولقد أكبرت من بغداد بلوغ العمران بما رأيت من ازدحام الناس بأنحائها وتموجهم كالبحار فى أرجائها يقال ان عددهم يزيد عن ألف ألف وخمسمائة ألف وهذا جمع لم يكن مثله ولا قدر نصفه فى مدينة من العالم قط فانما يدل اجتماع الناس على هذا القدر العظيم على أن ليس فى المدن أيمن ولا أيسر من الموضع الذى يتكوفون به تكوف الرمال ثم أعظمت بلوغ النعيم فى أهلها بما رأيت من توفر أرباب الغايات عندهم على الفنون التى لا تقتصر الحاجة منها على ضروريات العمران وانما تتوسع المنفعة من صناعاتها ومصنوعاتها الى مطالب الترف الذى يقع فى الأمم عند استكمال دولتهم واستفحال أمرهم »(٤٣) •

---

(٤٣) حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٨٦ جميل نخلة • دار المعارف العمومية طبعة بولاق سنة ١٩٣٥ •

ثم نعود الى رثاء هذه المدينة العظيمة ونستحضر الصورة التى يرسمها الشاعر لهذه المدينة وأهلها الذين منهم من فنى تحت ضربات المنجنيق ومنهم من أحرق بالنيران وهم محاصرون وفريق آخر أغرق فى النهر وعليه النائحات تنوح ورابعة فى جانب آخر تصيح وتندب حظها وخامسة تبكى زوجها الشفيق وسادسة فتاة منعمة ذات جمال تفر من نار الى نار أشد وهى نار الفتك والسلب والاغتصاب وتنظر الى والدها يقذف فى النار وقد ذهب عقله بسبب الذعر فلم يجد أمامه طريقا غير النار والحريق وفتيات أخريات جميلات متلألآت خرجن فى زينتهن لا يدرين ما يصنعن يولولن ويصحن بمن يشفق عليهن ولكن من يسمع ومن يجيب فى ذلك الهول العظيم الذى أشبه يوم الحشر الذى قال فيه تبارك وتعالى « يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه »(٤٤) ففى هذا اليوم يفترق الناس ويفتقد الشقيق شقيقه •

وقد خرج جماعة من ديارهم بعد أن انتهبت أموالهم وضاع متاعهم وصاروا بلا متاع ولا مال ثم يصور الشاعر ما رآه من الأجساد الملقاة على قارعة الطريق وقد قطعت منها الرءوس وأصبح لا يعرف لها صاحب ولا تعرف من أى فريق فكلا الفريقين يحسبها من الفريق الآخر فتترك فى العراء بلا غطاء وكيف لا والولد لا يقيم مع أبيه ويفر الصديق من الصديق وتنهار كل العواطف وتنقطع كل وشائج الصلات بين الأهل والأصدقاء وأخيرا ينهى الشاعر قصيدته بقوله ومهما أنس من الأشياء التى تمر بى فى حياتى فلن أنس هذا الدمار والخراب والاضطراب الذى نزل ببغداد •

---

(٤٤) سورة عبس الآيات ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ •

حقا انها لغنية عن الشرح والتوضيح والكشف عن صدق الشاعر الذى تلاقت كلماته وعباراته بأحاسيسه ومشاعره التى فجرت كل هذه الشحنات فالشاعر ضمن قصيدته كثيرا من الكلمات التى تتمشى مع الجو النفسى وتتواءم مع ذلك الاحساس الذى ينتشر فيها يهيمن على أبيها يترك فى نفس من يقرؤها أثرا حزينا ويتصاعد هذا الاحساس فى نفوسنا بعد الانتهاء من قراءة تلك الأبيات من جراء ذلك النغم الخافت الحزين وتلك الروح البائسة العاجزة عن أن تفعل شيئا وفيها ذلك الاحساس العميق الصادق فليس أمام الشاعر الا أن يصور احساسه وشعوره بأبيات باكية حزينة بعيدة عن التكلف والأغراض .

وهذه القصيدة توضح فجيعة الشاعر فى هذه المدينة التى صورها وصور ما حل بها من هتك ودمار جعل قلوب السكان فى رعب وخوف من هول ما حدث فلا رحمة لطفل لأنه رضيع ولا لشيخ لأنه ضعيف ولا لفتاة لأنها عذراء ولا لامرأة لأنها أم . كل ذلك عبر عنه الشاعر واختار له من الكلمات : بكيت دما — أحرقوا بالنار — نائحة تنوح — صائحة تنادى — باكية لفقدان الشفيق — تفر من الحريق الى انتهاب فلا ولد يقيم على أبيه — وقد هرب الصديق من الصديق — الخ تلك الكلمات .

انها بلاشك صورة تثير المشاعر وتحرك العواطف ويكفى أنها تمثل تجربة واقعة عاشها الشاعر وأحس بها وكيف لا وهى بمثابة جرس الخطر الذى يعلن وينبه عما يحدث للمسلمين وبلادهم بعد ذلك .

ويقول شاعر آخر فى رثاء بغداد وهو عمرو بن عبد الملك العترى الوراق :

يا رماة المنجنيق ... كلكم غير شفيق
ما تبالون صديقا ... كان أو غير صديق

ويلكم تدرون مـــاتر　　مون مرار الطريق
رب خـــود ذات دل　　وهى كالغصن الوريق
أخرجت من جوف دنيا　　هاومن عيش أنيق
لم تجد من ذاك بدا　　أبرزت يوم الرحيق(٤٥)

فالشاعر يصور فى هذه الأبيات حالة بغداد وسكانها بعد أن رماها الأعداء بالمنجنيق وأنزلوا بأهلها العذاب واصطلى الأهالى فيها بالنيران وخرجوا من منازلهم مشتتين • فهو شعر فيه احساس صادق وتحس بالآلام تتدفق من ثنايا هذا الشـــعر الحزين من تلك البلـــوة التى عمت بغداد وأهلها والتى أهلكت الحرث والنسل وراح ضحيتها الأبرياء من الناس وقد درست محاسنها وفى ذلك يقول العترى :

من ذا أصـــابك يا بغـــداد بالعـــين
ألم تكونى زمانا قـــــرة العـــين
ألم يكن فيك قـــــوم كان قـــربهم
وكان مســـــكنهم زينا من الزين
صباح الغراب بهم بالبين فانفرضوا
ماذا لقيت بهم من لوعـــــة البين
أســـــتودع الله قـــــوما ما ذكرتهم
الا تحـــــدر ماء العـــين من عينى
كانوا ففـــرقهم دهـــر وصـــدعهم
والدهر يصدع ما بين الفريقين(٤٦)

---

(٤٥) تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٤٤٦ • تحقيق محمد أبو الفضل — دار المعارف •

(٤٦) تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ٤٤٧ تحقيق محمد أبو الفضل ، مروج الذهب جـ ٣ ص ٤١٢ •

والشاعر هنا يذكر ما حل ببغداد أيضا وما حدث لها ويرجعه لعين الحاسدين التى أصابتها وقد صاح بها الغراب وأصابهم من اللوعة ما أصابهم ولم يجد سبيلا الا التجلد والصبر والا أن يستودع الله هؤلاء الناس ويبكى فراقهم ويذرف الدموع عندما نذكر هؤلاء الناس وحياتهم الماضية الوارفة ولما أصاب مدينة السلام وما لحق بأهلها بعد أن كانت قرة للعين ، وكانوا هم زينتها وبهجتها وانه ليبكى فراقهم كلما استحضر صورة حياتهم الماضية بل ان لوعة الأسى لتجعل الدمع ينحدر من عينيه من تلقاء نفسه وهـذا أبلغ حالات الأسى والحزن ولعل من الطبيعى أن يتفجر هذا الرثاء عن عاطفة انسانية صادقة . اذ لم يدفع الشاعر اليه سواها مما يكون فى رثاء الأشخاص من مثل القرابة والمجاملة أو الحصول على العطاء والجزاء .

« بكـاء البصرة »

وليست « بغداد » وحدها هى المدينة التى بكاها الشعراء فى العصر العباسى الأول فقـد بكوا « البصرة » وكانت المدينة الثانية التى حلت بها وبأهلها نكبة فادحة وذلك فى عهد الخليفة المعتمد «٢٥٦ : ٢٧٩هـ»(٤٧) . وكان ذلك بعـد الفتنة التى كانت بين الأمـين والمـأمون بثمانين عاما أو بالدقة فى سنة ٢٢٧هـ : ٨٩٠م(٤٨) . وقد كانت نكبة البصرة عـلى أيدى ثوار الزنج بزعامة على بن محمد الذى ادعى النسب الى زيد بن الحسين بن على بن أبى طالب(٤٩) . وان كان بعض المؤرخين أنكـر أن يكون « علوى البصرة على بن محمد الذى ثار بأيام المعتمد على الله منتهى النسب الى على بن أبى طالب فقد وصفوه بأنه كان متحـيرا فى اثبات نسبه الطالبى فقد ذكر أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران حيث

(٤٧) فى الشـعر العبـاسى الرؤية والفن ص ٣٧٤ د. عز الدين اسـماعيل .

(٤٨) دراسات أندلسية ص ٢٢٦ د. الطاهر أحمد مكى .

(٤٩) فى الشعر العباسى ص ٣٧٤ د. عز الدين .

قال : « وأما العلوى البصرى فذكر بعض الناس أنه كان قبل خروجه يذكر أنه من عبد القيس ثم من عمار وكان اسمه احمد فلما خرج تسمى عليا والكذب كثير جم »(٥٠) • وقد ذكر صاحب جمهرة أنساب العرب عندما ذكر بنو زيد بن على بن الحسينى بن على بن أبى طالب فقال : ولو علم النسب لجاز لهذا الكافر ما ادعى من هذا النسب الشريف وانما كان صاحب الزنج على بن محمد بن عبد الرحيم العبقسى من عبد القيس(٥١) ولكن البعض يذكر أنه كان علويا وعلل نهوضه بالفتنة لأسباب مظلمة العباسيين بالعلويين واخذهم منهم حقهم الأول فى الخلافة واستطاع العلوى أن يضم اليه عددا غير قليل من الزنج الذين هبوا الى نداء العلوى لأنهم وجدوا فى ذلك خلاصا لهم من عبودية الرق والظلم الذى كان واقعا عليهم • ففى هذه الثورة وجد الزنج متنفسا لهم فيها ضد أسيادهم العباسيين • ولقد استغلها العلوى عندما عزم على النهوض فى وجه العباسيين وقد جعل هؤلاء العبيد وسيلته الى الوصول لأغراضه السياسية الخاصة وظهر هذا بوضوح عندما تحولت دعوته التى كانت بقصد المطالبة بالحرية للزنوج الى سفك دماء وانتهاك محارم وهدم بلاد واستحلال نساء محرمات وانتهاب أموال وانتهى به الأمر بعد هذا الاجرام الى ادعاء النبوة والرسالة(٥٢) • وقد قتل علوى البصرة فى موضع بها — البصرة — يقال لها الحقيقة أربعة وعشرين ألفا عدوهم بالقصب وحرق جامعها وقال فى خطبته يخطب فى الزنج : «انكم

---

(٥٠) رسالة الغفران لأبى العلاء ص ٤٤٨ تحقيق د• بنت الشاطئ طبعة دار المعارف ط السابعة •

(٥١) جمهرة أنساب العرب ص ٥٧ لابن حزم الأندلسى • تحقيق د• عبد السلام هارون •

(٥٢) انظر شعر الحرب فى الأدب العربى ص ١٧٠ — ١٧١ د• زكى المحاسنى دار المعارف بمصر الطبعة الثانية •

قد أغيتم بقبح مظهر فاشفعوه بقبح مخبر واجعلوا كل عامر كفرا وكل بيت قبرا »(٥٣) .

وكان قد عزم على حرب مع الخليفة العباسى أبو أحمد الموفق أخو المعتمد على الله فحاربه أربعة عشرة سنة ففى سنة ٢٧٧هـ « اقتحم الزنج مدينة البصرة من ثورتهم التى قاموا بها وقاوموا الدولة خلالها أربعة عشر عاما وقام بها ضحايا الاستغلال الذى مارسه زبانية الاقطاع تجاه المستضعفين الذين كانوا يعملون فى مناجم الملح الواقعة فى نهر الفرات الأدنى فغرس السخط والحقد فى نفوسهم ونفوس من كانوا فى مثل حالتهم وأرسلت الدولة الجيش لاخضاعها ولكن ظروف المقاطعة وكثرة المستنقعات والترع جعلتهم ينتصرون على كل هؤلاء الجند »(٥٥) وينالون من كل ما وقع تحت أيديهم من الأسرى حتى من غير المحاربين ومما يذكر من فداحة هذه الثورات ونتائجها اذ « يقدر عدد من قتل وذهب ضحية هذه الحرب بأكثر من نصف مليون وعقب احدى المعارك بلغ عدد الرؤس التى لم تطلب من الكثرة حدا جعل الزنوج يفرغونها فى احدى القنوات التى حملتها الى البصرة ليتعرف عليهم أهلوهم وأصدقاؤهم هناك »(٥٦) .

ولقد بكى البصرة كثير من الشعراء عندما اقتحمها الزنج وأخذوا يسومونهم الخسف والعذاب فقتلوهم وخربوا ديارهم وباعوهم فى الأسواق بيع العبيد وفى سنة ٢٥٨هـ أوقعوا بأهل البصرة وقعة هائلة قتل فيها من أهل البصرة عدد كثير وخربت أكثر مبانيها،وكما أثارت نكبة بغداد كثيرا من الشعراء من أمثال الخريمى وعمر الوراق وغيرهما

(٥٣) رسالة الغفران ص٣٥ تحقيق د٠ بنت الشاطىء الطبعة السابعة
(٥٤) تاريخ الطبرى جـ ١١ ص ٣٢٦ .
(٥٥) دراسات أندلسية ص ٢٢٦ د٠ الطاهر مكى .
(٥٦) دراسات أندلسية ص ٢٢٧ د٠ الطاهر مكى .

كذلك أثارت نكبة البصرة هذه وأثرت فى نفس ابن الرومى تأثيرا بليغا فنظم قصيدة طويلة فى بكاء البصرة وأهلها ورثى هذه المدينة رثاء حارا صادقا يفصح عما نزل بها وقد وجدت البصرة فى ابن الرومى الشاعر الذى يبكيها ويصف ما فعله الزنج بها والمأساة المروعة التى تعرضت لها فقال فى قصيدته التى مطلعها(٥٧) :

زاد من مقلتى لـــذيذ المنـــام
شـــغلهما عنـــه بالدموع السـجام

ولقـــد كانت لأخبار الدمـــار التى حلت بالبصرة هى التى أوقعت الحسرة والأسى فى نفس الشـــاعر — ابن الرومى — وحينئذ لم تكف عيناه عن البكاء ولم تطيقا الاستســـلام للنوم الهادىء وهذا ما جعله يقـــول :

أى نوم من بعـــــد ما حل بالبصـــ
ـــرة من تلـــكم الهنـــات العظـــام
أى نـــوم من بعـــدما انتهك الزنـــ
ج جهـــــارا محـــارم الاســـــلام
أقـــدم الخـــــائن اللعين عليهـــــا
وعـــــلى الله أيمـــــا اقـــــدام

وأخذ الشاعر يصور ما حل بالبصرة على أيدى الزنج فى مشاهد متلاحقة تفيض بالأسى وتنبض بالحزن ، وقد نهج ابن الرومى فى هذه المرثية منهج الموازنة والتصـــوير المأسوى معا كما صـــنع الخريمى فى أجزاء من قصيدته • فهو يصف حـــال المدينة قبل تخريبها وكيف انهـــا

---

(٥٧) ديوان ابن الرومى جـ ٦ ص ٢٣٧٧ تحقيق د• حسين نصار ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨١م قطعة رقم ١٢٥١ •

كانت كعبة العلم ومصـــدرا من مصادر الخـــير العميم ووصف أهلهـــا الآمنين ثم انتقل الى تصوير ما حل بالمدينة على أيدى الزنج وصور كيف باغتهم العبيد بالسيوف فقال(٥٨) :

بينمـــا أهلهـــا بأحسن حـــال
اذ رماهم عبيـــدهم باصـــطلام
دخلـــوها كأنهم قطـــع الليـــا
ل اذا ارح مـــدلهم الظـــلام
اذ رموهم بنـــارهم عن يمـــين
وشـــمال وخلـــفهم وأمـــام

ولقد كانت هذه المرثية العظيمة التى تعد ملحمة من ملاحم الشعر العربى تصويرا رائعا صـــادقا فى نقل مشاعر الشـــاعر وعواطفه ازاء وطنه الذى راح يبكيه ويصور ما حل به من قلق وما سيطر عليـــه من حزن ولقد أفاد الشاعر التاريخ بكثير من ألوان المعرفـــة حيث دل على أصل هؤلاء الزنج فبين أن أصلهم من العبيد والخدم ووضـــح ذلك فى قـــوله :

بينما أهلها بأحســـن حال اذ رماهم عبيدهم باصـــطلام

وهذا يدل على أن الأدب مع التاريخ فهو يسجله ويوضحه وفى بعض الأحيان يصور ما يهمله ولست بدعا فى هذا الرأى فقد سبقنى اليه كثير من الباحثين(٥٩) وعلى هذا الأساس فقد افاد ابن الرومى التاريخ وقد أيد هذا كثـــير من البـــاحثين(٦٠) الذين رأوا أن أفعـــال الزنوج التى

---

(٥٨) ديوان ابن الرومى جـ ٦ ص ٢٣٧٨ ق رقم ١٢٥١ .
(٥٩) راجع الحياة العربية من خلال الشعر الجاهلى ص ٣ د. الحوفى الشعر فى عصر المأمون ص ١٤ د. على طلب .
(٦٠) راجع شعر الحرب ص ١٧٠ د. زكى المحاسنى .

اجترحوها كانت نتيجـــة أو رد فعل لمـــا حدث لهؤلاء العبيـــد من جور واستعباد من أسيادهم ثم انتقل الشاعر الى تصوير ما حل بالبصرة على أيدى الزنج بعد أن باغتوا أهل المدينة التى كانت آمنة مطمئنة وفى أحسن حال ويصور المشـــهد الثانى من أفعـــال الزنج وما اقترفوه من ذنـــوب وآثام وكعـــادته يهتم بالوقائع ويستقصى حقائق الأحـــداث وتفاصيلها دون شطط أو جور ولقد شهد له بالروعة والصدق فى التعبير كثير من الباحثين اذ قال بعضهم : « وقد وجدت البصرة فى ابن الرومى الشاعر الذى يبكيهـــا ... وقصيدته تبلـــغ الذروة احكاما فى بنـــائها وتسلسلا فى أفكـــارها وكل بيت يســـلمك الى ما بعـــده ضرورة »(٦١) ويمضى الشاعر فى تصوير الهلع والذعر الذى أصاب أهل البصرة لدرجة أن الشارب غص بشرابه والطاعم غص بطعامه من بشاعة ما ارتكبوه من أفعال حتى من أراد الفرار تلقفوه بسيوفهم وأجهزوا عليه برماحهم فقد صور الشاعر فى هذا البيت كيفية ما حدث حتى لمن فكر فى الفرار فقال(٦٢) :

كم أغصـــوا من شـــارب بشراب
كم أغصـــوا من طـــاعم بطعـــام
كم ضـــنين بنفســـه رام منجى
فتلقـــوه جبينـــه بالحســـام

فهو يصور ما فعله الزنج مع هؤلاء الآمنين من الضرب والنكال الذى أصابهم فى وجوههم ولقد فقد أهل البصرة أمام ذلك الغزو المدمر كل حيلة حتى الفرار والانسحاب وقد انشغل كل انسان بنفسه حتى

---

(٦١) دراسات أندلسية ص ٢٢٧ د. الطاهر أحمد مكى .
(٦٢) ديوان ابن الرومى جـ ٦ ص ٢٣٧٨ تحقيق د. حسن نصار الهيئة المصرية العامة طبعة سنة ١٩٨١ .

عن أخيه فاذا ما وجد أخاه صريعا أو مقتولا أو مصابا يعانى سكرات الموت معفرا بالتراب أو ملقى بين الشهداء الكرام الذين نالت منهم يد العدو الغدار فلم يكن فى استطاعته تخليصه حيا أو دفنه ان كان ميتا وكذلك الأب كان يرى العزيز من أبنائه يضرب بالسيف ويقتل أمام عينيه ولا يملك له من الأمر شيئا وكثير من الناس الأعزاء على أهليهم وذويهم أصابهم الضرب والسلب وغلبوا على أمرهم ولم يكن بوسع أحد حمايتهم أو الذود عنهم وأفدح من كل هذا ما نال الأطفال الرضع من قتل وحرمان وفطم بحد السيف وهذا يدل على منتهى القسوة والشدة حتى انهم لم يرحموا طفلة بريئة ولا شيخا كبيرا والشاعر استطاع أن يصور مدى موقف هؤلاء الأعداء ضد سكان المدينة وبالذات ضد الضعفاء من الأطفال الرضع والفتيات العذارى وهن يتعرضن للاعتداء أو سلب أعز وأغلى ما تمتلكه الفتاة ، يؤكد على ذلك بأنهن مصونات بقوله كم فتاة بخاتم الله بكرا • ومع ذلك انتهكوا أعراضهن جهرة وبلا وازع من دين أو ضمير وأن فضحهن كان جهارا ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد بل أخذوهن سبايا وجعلوهن مكشوفات الوجوه وكن من قبل مصونات فى خدورهن وقد صور ذلك شعرا فقال(٦٣) :

كم أخ قد رأى أخاه صريعا
ترب الخد بين صرعى كرام

كم أب قد رأى عزيز بنيه
وهى يعلى بصارم صمصام

كم مفدى فى أهله أسلموه
حين لم يحمه هنالك حامى

كم رضيع هناك قد فطموه
بشبا السيوف قبل حين فطام

---

(٦٣) ديوان ابن الرومى جـ ٦ ص ٢٣٧٨ •

كم فتـــاة بخـــاتم الله بكر
فضحوها جهـــرا بغير اكتتـــام
كم فتـــاة مصـــونة قد ســـبوها
بارزا وجههـــا بغـــير لثـــام

ويمضى الشاعر فى قصيدته الناطقـــة بالتصوير المفعمة بالمشاعر التى اثرت فى أهل البصرة وهزت كيانهم ولا أظن أن انسانا ما أيا كان احساسه لابد وان يتأثر ويهتز كيانه ويتحرك وجدانه ويشارك الشاعر مشاعره الباكية وهذا هو الغرض الأســـاسى من الأدب « فليس غرض الأدب التسلية والتلهى فحسب وانما غرضه ايقـــاظ نفس وتنبيه ضمير ... وهو لا ينقضى بانقضاء ســـاعة ولا يذهب مع الريح وانما يؤثر فى حياتنا جميعا ... وهو وسيلة من وســـائل فهم الحياة والاحســـاس بها »(٦٤) وهكذا كانت علاقة ابن الرومى بالبصرة علاقة شاعر بوطنه الكبير ومدينته العظيمـــة حيث مشاعر الاخلاص الصادق الوافى وقـــد ظهرت هذه المشاعر فى ثنايا مرثيته فهو يئن مع مدينته وأهله وأهلهـــا وكيف لا وهو لا يملك الا أن يرثى لما حل بها من تشريد للأطفال وهدر لكرامات النساء فيقول(٦٥) :

من رآهن فى المســـاق ســـبايا
داميـــات الوجـــوه للأقـــدام
من رآهن فى المقـــاسم وســـط الز
نـــج يقســـمن بينهم بالســـهام
من رآهـــن ليتخـــذن امـــاء
بعد ملك الامـــاء والخـــدام(٦٥)

---

(٦٤) فصول فى الأدب والنقـــد والتاريخ ص د. على أدهم الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٩م .
(٦٥) ديوان ابن الرومى جـ ٦ ص ٢٣٧٩ .

أين ضـوضاء ذلك الخلق فيهـا
أيـن أسـواقها ذات الزحـام
بدلت تلكـم القصـور تـلالا
من رمـاد ومن تـراب ركـام
سلط البشق والحـريق عليهـا
فتداعت أركانهـا بانهـدام
وخلت من حلولهـا فهى قفـر
لا ترى العـين بين تلك الأكـام
غـير أيد وأرجـل بائنـات
نبذت بينهن أفـلاق هـام(٦٦)
انفـوا أيهـا الكرام خفـافا
وثقـالا الى العبيد الطغـام(٦٧)
ان قعـدتم عن اللـعين فأنتم
شركـاء اللعـين فى الآثـام

فالشاعر يوضح كل هذا ويقول من رآهن وهن يوثقن أمام الأعداء سبايا وهن مصبوغات بالدماء التى تلطخت بها النساء من رءوسهن الى أقدامهن والأعداء يسوقون النسـاء ثم يقسمونهن كما تقسم الغنـائم بالسهام ليقمن على خدمة هؤلاء الزنج شأنهن شأن العبيد بعد أن كن فى عزة الملك ويخدمهن الاماء ، وهكذا ذاقت المدينة وأهلها الكثير بعـد أن أنزل الزنج بأهلها القتل والسب وهدموا دورها العامرة وقصورها الشاهقة اذ سلط عليها الحريق من جهة وشـقوا اليها طريق المهـاوى وبحور الدمار لاغراقها من جهة أخرى ، ومن يتدبر هذه القصيدة يلمح فيها « صورة التهويل المثيرة المتتابعة يسوقها ابن الرومى ويوضحها بما

---

(٦٦) ديوان ابن الرومى جـ ٦ ص ٢٣٨٠ .
(٦٧) ديوان ابن الرومى جـ ٦ ص ٢٣٨١ ، ٢٣٨٢ .

وهب من براعة فى فن التصوير الشعرى وكأنه يهدف من وراء هذا أن يستل الرحمة من قلوب من يعطف على هؤلاء الزنج ويتعاطف معهم فى حجتهم ويقف معهم فى مطلبهم الذى راحوا ينادون به وهو الحرية . هذا من جهة ومن جهة أخرى، فان هذه المرثية قالها ابن الرومى فى مدينة البصرة وكان يهدف منها صياغة المأساة وتصويرها فى أبيات شعرية وأتى فيها من التهويل والاثارة مايحفز همة الخليفة وهمة الناس والنهوض لنصرة هذه المدينة البائسة والوقوف لأولئك الأعداء(٦٨) ، فأخذ يذكر بما كان فيها ويتساءل أين الطرب والأصوات التى تعلو المدينة بالغناء أين ما كان فيها من قصور شامخة أين أين ... كل ذلك ذكره ابن الرومى فى قصيدته وقد «صور تحريق الزنج لقصور البصرة وبكى رسومها وأطلالها ومساجدها واستنجد المسلمين واستغاث بهم على نصرتها ودعاهم أن ينفروا خفافا زو ثقالا حتى ينتقموا منهم شر انتقام »(٦٩) وقد جعل الشاعر نهاية القصيدة وصفا لتهديم القصور وتحريق أركانها وتحويلها الى أكوام من التراب والرماد من كثرة ما سلط عليها من المواد المدمرة التى صيرتها أشلاء وقتلاها تملأ ساحتها وشوارعها وقد جعل آخر مرحلة فى القصيدة حث القوم الكرام على محاربة هؤلاء العبيد وبين لهم أن من يتأخر أو يتهاون فهو شريك معهم تناله اللعنة ويصيبه الاثم .

حقا انها لأكثر من رائعة تضاف الى روائع ابن الرومى التى سجلها لنا التاريخ وشهد له بالتفوق الكثير من الأدباء والنقاد قديمهم والحديث وبالذات فى هذه القصيدة التى تعد بحق ملحمة تاريخية عظيمة صور فيها ابن الرومى ما حدث للبصرة فى الحرب الزنجية « وقد ذكر غير ابن الرومى هذا الحدث الجلل لكن أحدا من الناس لم يحسن تصويره

---

(٦٨) انظر شعر الحرب فى أدب العرب ص ١٧٤ د. زكى المحاسنى
(٦٩) فن الرثاء ص ٤٨ للجنة من أدباء الأقطار .

ووقف الشعر عليه كما أحسن ابن الرومى ووقف ... وكفى بابن الرومى أن يروح تياها بهذا الوصف » (٧٠) .

هكذا كان رثاء ابن الرومى للبصرة تصويرا للمأساة انطلق فيه بدافع ذاتى وأدى دورا فعالا فى حفز الهمم وادراك المدينة المستباحة (٧١) وذلك هو الشعر الخالد حقا صور لا تعتمد على طلاء وزخرفة وانما فكر آخذ بعضها برقاب بعض تمر أمام العين كما يمر شريط الذكريات وهى بعد . رائعة لكل زمان ، وفى أى مكان ، لأنها صورة منتزعة مما هو كائن ومما كان ومما يكون .

ومن خلال ما تقدم نستطيع أن نذكر بايجاز أهم :

« الخصائص والسمات الفنية فى هذا اللون من الرثاء فى المشرق العربى » وتتركز هذه السمات فيما يأتى :

أولا : الابتكار والتجديد فى الموضوع .

ثانيا : التركيز العاطفى أو صدق الشعور .

ثالثا : التجويد الفنى أو صدق التعبير .

رابعا : طريقة تناول الموضوع والسير فيه وهى تتلخص فى :

(أ) استخدام الأسلوب الروائى .

(ب) ظهور الوازع الدينى ومزجه بالشعور الوطنى .

(ج) كثرة الموازنة بين الماضى والحاضر .

(د) الاعتراف بالحسد والعين .

(هـ) الارشاد والتوجيه .

---

(٧٠) شعر الحرب فى أدب العرب ص ١٧٥ د. زكى المحاسنى .

(٧١) فى الشعر العباسى ص ٣٥٦ د. عز الدين اسماعيل .

أولا : الابتكار والتجديد ونعنى به أن الشاعر فى العصر العباسى لم يعش بمعزل عن الأحداث التى عاشتها بغداد والبصرة ولاسيما هذه الفتنة التى كانت بين « الأمين » ، « المأمون » والتى انتهت بدمار بغداد ، وكذلك فتن الزنج ، التى انتهت بدمار « البصرة » •

فقد حركت تلك الفتن ، أحاسيس الشعراء ، وأهاجت مشاعرهم ، فراحوا يصورون هذه المآسى ، الأليمة فى قصائد ، تبكى الوطن ، وترثى المدن ، ولقد كان هذا المنحى فى الرثاء جديدا كل الجدة ، على مستوى الشعور الانسانى ، ويرجع ذلك الى أن علاقة الانسان بمدينته لم تكن متوطدة من قبل بالصورة التى كانت فى العصر العباسى •

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الأحداث التى نزلت بالمدن الاسلامية ، فى هذا العصر لم تشهد مثلها مدن الاسلام من قبل ، وبهذا فقد وجد الدافع ، والباعث الى هذا اللون الجديد الذى دعت اليه ظروف العصر ، وأحداثه ، ووجدت دوافعه ، وجرى مع هذه الدوافع الى غاياتها ، وترك لنا الشعراء العديد من قصائدهم فى هذا اللون الجديد •

ثانيا : التركيز العاطفى أو صدق الشعور :

ونعنى بالتركيز العاطفى ، فى رثاء المدن ، هو أن تظهر العاطفة بوضوح لدرجة تسمح لنا أن نقول : انها أبرز عناصر المضمون الشعرى • والأمثلة على ذلك كثيرة يمكن ملاحظتها بسهولة مما سبق من قصائد ، حيث نجد أن أغلب عناصر هذا الشعر هو عنصر العاطفة الصادقة ، ولم يأت هذا من كون الموضوع موضوعا عاطفيا بطبعه ولكن من غلبة الجانب العاطفى فعلا على طبيعة الشعراء حيث أصبح كل همهم أن يوضحوا هذا الجانب ، وينقلوه الى غيرهم ما استطاعوا • والصدق الشعورى ، أو العاطفة الصادقة هى أن تبعث العاطفة عن سبب

صحيح غير زائف ، ولا مصطنع ، ونرى هذا فى رثاء مدن العراق ، اذ كانت قصائدهم صرخة من الأعماق ، تمثل قمة الشعر الصادق اذ أن رثاء الشاعر لمدينته لم يكن بدافع الرغبة فى العطاء ، أو الاعتبارات المألوفة فى حالة رثاء الأشخاص ، وانما بدافع ذاتى محض سببه العلاقات الوجدانية والروابط الوطنية .

اذ كانت الحياة فى العصر العباسى الأول راضية مطمئنة ، فالناس ينعمون بالخيرات ، ويشعرون بأن وطنهم دار أمان وسلام ، وقد غرس ذلك فى نفوسهم الحب له ، والحرص عليه ، والذود عنه أمام أى خطر يحدق به ومن ثم تولد بين أهله الحب ، والحنين ، وبالذات عند أدبائه وشعرائه لشدة ارتباطهم به ، ولست أزعم أن حب الوطن أو الحنين اليه وقفا عليهم دون غيرهم ، ولكن حنين هؤلاء الشعراء لوطنهم كان صادقا ومتميزا ، وكثيرا وظهر ذلك عندما ضاعت مدنهم من جراء الفتن والثورات ، وعمق احساسهم به حينما نزلت بهم وبأهلهم المصائب ، والكوارث حتى الأطفال ، والفتيات ، والنساء كما رأينا فبكاها الشعراء بقصائد تعكس مأساتهم فى صدق وتصور محنتهم فى دقة وقد عرضوا ما كانت عليه مدنهم وما انتهى اليه حالهم كل ذلك جسمه الشعراء فى ايقاع حزين تكاد معه ترى كل شىء وتلمسه فقد سيطر الحزن العميق على الشعراء وكثر البكاء ، والأنين حتى أصبح الرثاء هو الغرض الواضح ، والفن البارز ، وكان صورة صادقة لجوى الحزن الذى عاش يفصح عن أفكار الشاعر ، وأحاسيسه دون تصنع ، ولا تزوير ... ويصدر عن استعداده الفطرى ، ويكون الشاعر حينئذ طوع انفعاله يذهب به أنى شاء فلا يضع فى سبيل أفكاره وعواطفه سدودا تقلل هديرها أو تعرقل مسيرها »(٧٢) .

---

(٧٢) دراسات أدبية ص ٦٢ د. سعد اسماعيل شلبى .

وهذا ما وجدناه فى شعر الرثاء الجديد رثاء المدن وبكائها عند شعراء المشرق العربى •

ثالثا: التجويد الفنى فى التعبير :

ونعنى بذلك التجويد ، محاولة الأداء ، والتعبير عن المشاعر والأحاسيس بطريقة أجود ، وأكثر ايحاء من الأغراض الأخرى وقد كان للشعراء فى هذا اللون الجديد ، وسائل مختلفة فى هذا التجويد بعضها يتعلق بالمضمون ، وقد سبق الحديث عنه ، وبعضها يتصل بالشكل ، وهذا ما نريد أن نوضحه اذ أن هذه السمة الفنية التى بدت فى رثائهم منذ نشأته كانت دائما من أوضح خصائص هذا اللون من الشعر العباسى فى كل العصور ، وان أخذت مظاهر مختلفة من قصيدة الى قصيدة ، ومن شاعر الى آخر •

واذا تأملنا قصائد هذ اللون من الرثاء وجدنا الشعراء يستعملون التعبير الموحى بطريقة فنية بارعة بما تشتمل عليه من كلمات مؤثرة غاية التأثير ، وهى واضحة فى كل قصائدهم السالفة ، ولا أذكرها خوفا من الاطناب •

فالشاعر استطاع أن يصور عالمه النفسى المليء بالمخاوف بالكلمات التى تفى بالغرض وتوحى الى القارىء والسامع « لأن ذهن السامع العربى تعود النفاذ فى الصورة الحسية الى دلالتها النفسية »(٧٣) •

ولقد حقق الشعراء فى هذا اللون من الرثاء صدق الشعور ، وصدق التعبير لأنه « ينبغى أن يتجه تأليف الشعر الى ايجاد تعادلية تعبيرية طرفها الأول مشاعر الشاعر ، واحساساته ، وانفعالاته وأفكاره، وطرفها الآخر اللغة التى تكشف هذه المشاعر والاحساسات،والانفعالات

---

(٧٣) اللغة الشاعرة ص ٢١ للعقاد •

والعواطف ، والأفكار ، ولا يتأتى ذلك الا اذا قدر الشاعر على الموائمة بين مضمون شعره وشكله ... ومن هنا يكن قادرا على نقل تجربته نقلا صادقا أمينا »(٧٤) .

نحن نحس بما يختلج فى نفوس الشعراء ، وما يدور بوجدانهم .

رابعا : طريقة تناول الموضوع والسير فيه :

فقد ركز الشاعر على الحوار فى عرض فكرته ، والكشف عن مشاعره واختار الأسلوب الانشائى الذى يجعل العبارة أقوى تأثيرا وقد اعتمد على التصوير الواقعى بدقته الى جانب الأسلوب الخيالى الرائع الفياض بالشعور ، وقد استخدم كذلك أسلوب الموازنة بين الأمس والحاضر ، وما كانوا عليه ، وما صاروا اليه والى جانب هذا تميز أيضا بمناجاة الدهر ، وتمنى العودة الى ما كان عليه ، ويكثر الشاعر أيضا من استخدام أداة النداء كثيرا الى جانب التركيز على الحوار فى عرض الفكرة ، والكشف عن المشاعر ، وتغلب أيضا النوازع الدينى فى التعبير حيث يقول الشاعر الأعمى :

تقطعت الأرحام بين العشائر
وأسلمهم أهل التقى والبصائر
فذاك انتقام الله من خلقه بهم
بما اجترموه من ركوب الكبائر
فلا نحن أظهرنا من الذنب توبة
ولا نحن أصلحنا فساد السرائر

ونجد الموازنة بين الماضى والحاضر يصور ذلك الخريمى فيقول :

يا هل رأيت الجنان زاهرة
يروق عين البصير زاهرها

---

(٧٤) قضايا النقد الأدبى الحديث ص ١٢٧ د. فرهود .

محفـــوفة بالكرم والنخيل والر
يحـان ما يســـتقل طـــائرها
فانهـــا أصـبحت خلايا من الـ
انســان قد أدميت محاجـوها
قفـرا خلاء تعـــوى الكلاب بهـا
ينكـر منهـا الرســوم زائرها

وكذلك يوازن ابن الرومى بـين ماضى البصـيرة ، وحـاضرها فيقـول :

بينمـا أهلهـا بأحســـن حـال
اذ رماهم عبيـــدهم باصـطلام
أين ضـوضاء ذلك الخلـق فيهـا
أين ذاك البنيـــان ذو الاحكـــام

وهناك الكثير من هذا اللون الذى يكثر فيه الشاعر الموازنة بـين الماضى والحاضر .

أما عن الحسد فيقول بعض فتيان بغداد فى « بغداد » :

أصابتها من الحســاد عين فأفنت أهلها بالمنجنيق

ويقول العترى :

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ألم تكونى زمانا قرة العين

ويتحدث عن التشاؤم فيقول :

صاح الغراب بهم بالبين فانقرضوا ماذا لقيت بهم من لوعة البين

أما الارشاد والتوجيه فهناك الكثير منه مبثوثا فى ثنايا قصـائدهم مثل قول الخريمى :

يا بؤس « بغـداد » دار مملكـة
دارت عـلى أهلهـا دوائرهـا
أمهلهـا الله ثـم أعقبهـا
لما أحـاطت بهـا كبـائرها
بالخسف والقذف والحـريق وبال
حـرب التى أصبحت تساورهـا
رق بها الدين واستخف بذى الـ
فضـل وعز النسـاك فاجرها
وحطم العبـد أنف سـيده
بالرغـم واستعبدت حرائرهـا

ويقول الشاعر الأعمى فى تخاذل الحكام والملوك :

تخـاذل عمـا نالهـم كـبراؤهم
فنالتهموا بالكـره أيدى الأصـاغر
فأقسـم لو أن الملوك تناصروا
لذلت لهـا خوفا رقـاب الجبابر

ويقول أيضا العترى :

اسـتودع الله قومـا ما ذكرتهم
الا تحـدر ماء العين من عينى
كانوا ففـرقهم دهر وصـدعهم
والدهر يصـدع ما بين الفريقـين

ومن الارشـاد والتوجيه ما يذكـره ابن الرومى فى رثائه لمدينـة البصرة فيقول :

انفـروا أيها الكـرام خفـافا
وثقالا الى العبيـد الطغـام
ان قعـدتم عن اللعـين فأنتم
شركـاء اللعـين فى الآثـام

وبعـــد :

فلعلنى أكون قد قدمت صورة واضحة لهذا اللون من الرثاء رثاء المدن فى المشرق فى العصر العباسى الأول .

والله الموفق ...

د. أحمد عبد المنعم أحمد العسيلى
المدرس بقسم الأدب والنقـــد
بكلية اللغة العربية بأسيوط
جامعة الأزهر